الفكر الإباضى ودوره فى تأكيد الشخصية العمانية

أ.د. حسن الشافعى *

الشخصية – دون دخول فى تفاصيل فنية – هى مجموع العناصر المادية والمعنوية التى تقوم الذات الإنسانية ، وتحدد صفاتها الخاصة وسماتها المميزة . يصدق ذلك على مستوى الفرد ، وهو ما يقصد عادة فى ميدان الدراسات النفسية المعاصرة ، ويصدق – أيضا – على مستوى الوطن ومستوى القومية ، فيقال : الشخصية العربية ، أو الشخصية الروسية ، أو الفرنسية ، أو الألمانية ، ونحوها ، مرادا بها السمات المميزة للفرد الذى ينتمى إلى إحدى هذه القوميات ، ومقوماته الذاتية ، سواء منها المقومات والسمات المادية الطبيعية أو المعنوية الثقافية .

وسواء رجع ذلك إلى اعتبارات وأسباب طبيعية كالمناخ والجنس والموقع والإقليم ، أو إلى خبرات واعتبارات ثقافية ومعنوية كاللغة والتاريخ والدين والفن وأسلوب الحياة بوجه عام . وقد تستخدم الكلمة أيضا على صعيد وطنى خاص فيقال :

---

(١) رئيس قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، وعضو مجمع اللغة العربية .

الشخصية المصرية أو المغربية أو العمانية ، مقصودا بها - فى الغالب - السمات المميزة للأفراد المنتمين إلى هذه الأوطان ، وترجع إلى ظروفها الخاصة ، وخبراتها المتميزة .

هذا ، وقد ارتبطت " الإباضية " فكرا وتجربة بالوطن العمانى بوجه خاص، منذ ظهرت على مسرح التاريخ الإسلامى ، على الرغم من أصدائها وآثارها التى لا تنكر فى دنيا العرب والمسلمين . وليس من المجازفة فى القول أن نقرر أنها أسهمت - ضمن مؤثرات وخبرات أخرى بالتأكيد - فى صياغة شخصية العمانى المعاصر ، وتحديد قسماته المميزة ، وسماته الخاصة . وسنحاول اليوم أن نوجه النظر إلى جوانب خمسة من تلك الشخصية أو من ذلك المذهب وما بينهما من آثار متبادلة ؛ وهى الجانب الاعتقادى الإيمانى ، والجانب العلمى والفكرى ، والجانب العملى الاجتماعى ، والجانب اللغوى ، ثم الجانب الروحى . وفى كل هذه الجوانب أو المجالات تتميز التجربة العمانية أو الشخصية العمانية بسمات متميزة ، ترجع بالتأكيد إلى خبراتها وظروفها الخاصة ، ومنها - فيما أعتقد - خبرة الحركة الإباضية ، وتجربة الفكر الإباضى .

١ - بين يدى الموضوع

وقبل أن أدخل فى صميم الموضوع أود أن أذكر تجربة أو شعورا شخصيا خالجنى بشدة عندما اتجه الرأى إلى أن أكتب فى هذا الموضوع بالذات فقد طالعنى فى خضم مشاعرى لحن قديم ، عزفه واحد من "أهل الاستقامة " ، هو عمران بن حطان ، أطلقه من عمان ، لتبلغ أصداؤه مسامع العرب والمسلمين فى إفريقية ، ويصافح ضمائرهم ، ويظل يتردد - بعد أن سجله ياقوت فى معجمه - حتى يصافحنى فى خضم مشاعرى تلك ، فينزل على قلبى بردا وسلاما ، إذ قال يصف إخوانه من " الأزد " المشاركين فى فتح حصن "بابليون" بمصر ، مع الزبير بن

العوام ، وغيره من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفى اختطاط مدينة الفسطاط حوله ، مع تجيب وغافق وغيرهما من قبائل العرب :

فساروا بحمـــد الله حتى أحلهم " ببليون " منها الموجفات السوابق

فأمسوا بحمد الله قد حـــال دونهم مهـــامه بيد والجبـــال الشواهق

وحلوا ولم يرجوا سوى الله وحده بدار لهم فيهـــا غنى ومـــرافق

فأمسوا بدار لا يفزع أهلهـــــا وجيرانهم فيها تجيب وغافق (١)

لقد امتد هذا العرق النبيل فى التربة المصرية - وكان من قبل مستقرا فى سيناء وصحراء مصر الشرقية - من الشمال إلى الجنوب (٢) ، واجتاز النيل ، واستقر فى أنحاء مصر بخاصة فى صعيدها ، وبلغ الواحات ، ودخل السودان ... حتى كان فقيه مصر - فى القرن الرابع الهجرى ، ولعله أعظم فقهائها الذين ولدوا بها - أزديا ، وهو الإمام أبو جعفر الطحاوى الأزدى ، الحنفى (٣) (ت : ٣٢١هـ)، وكان حافظ مصر ومحدثها أبو محمد عبد العظيم المنذرى (ت: ٦٥٦هـ) أزديا أيضا وكذا العديد من علمائها وأدبائها ومفتيها الذين برع البعض منهم فى الفقه الإباضى ، حتى بعث عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، إمام الدولة الرستمية بالمغرب ، يستفتيهم فى بعض نوازله ، كما بعث يستفتى شيوخ المذهب وأئمته فى البصرة (٤)

---

(١) د . رجب محمد عبد الحليم : الإباضية فى مصر والمغرب ، وعلاقتهم بإباضية عمان والبصرة ، مسقط ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ص ٤٣.

(٢) د . حسن محمود عبد اللطيف الشافعى ، فى فكرنا الحديث والمعاصر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م ص ١١٣ .

(٣) د . عبد المجيد محمود : أبو جعفر الطحاوى ، مكتبة الخانجى بالقاهرة ، الطبعة الأولى - المقدمة .

(٤) د . رجب محمد عبد الحليم : مرجع سابق - ص ٤٩ ، ٩٣ - ٩٨ .

وحتى " شملهم الحكام - وكانوا على غير مذهب الإباضية - برعايتهم حتى وقت متأخر ؛ مثال ذلك ما فعله صلاح الدين الأيوبى عندما خصص للطلاب الإباضية جامع ابن كولون ، يدرسون فيه ويقيمون ، كما جعل لهم الإقطاعات والرواتب حتى يتفرغوا لعملهم ودراستهم .... " (١)

نعم ، لقد جاءت بعد ذلك فترة من الخمول والتباعد ، جددت مشاعر الفرقة، وأحيت نوازع العصبية ، وأشاعت عن " الإباضية " ما كتبه بعض كتاب المقالات دون تدقيق ، حتى كانت النهضة الحديثة والصحوة المعاصرة ، فصدرت عن المذهب دراسات حديثة ونصوص قديمة ، تصحح الصورة وتعيد إليها ملامحها الأصلية ، وكان للقاهرة فى ذلك دور لا ينكر ، إلى جانب الجهود العمانية بطبيعة الحال ، ويرجع بعض الفضل فيه إلى اثنين من إخواننا المغاربة : أولهما الشيخ الجزائرى محمد بن يوسف إطفيش بقطب الأئمة فى القرن الماضى ، وثانيهما الباحث الليبى المعاصر على يحيى معمر اللذان صدرت أكثر أعمالهما من القاهرة . وقد كاد يساميهما جزائرى آخر متمكن هو الدكتور عمار الطالبى ، لو واصل العمل فى هذا السبيل . كما يرجع إلى العديد من الباحثين المصريين والعرب الذين أفادوا من جهود المستشرقين فى هذا الصدد ، وبخاصة جولد تسيهر ونلينو وموتيلينكسى وفان إس وويلكنسون وفلهوزن وجواشون ، فأصدروا العديد من الدراسات التى نوه بها الدكتور عوض خليفات فى بحثه القيم عن " نشأة الحركة الإباضية " . وربما جاز لى أن أنوه - أيضا - فى هذا المقام بثلاثة أعمال صدرت فى الأعوام الثلاثة الأخيرة بالقاهرة لأساتذة ثلاثة ينتمون إلى المعهد الذى أشرف بالانتماء إليه فى جامعة القاهرة - وهو كلية دار العلوم - أولها كتاب " جابر بن زيد " فى سلسلة أعلام العرب للدكتور أحمد درويش ، وثانيهما كتاب " الإباضية : دراسة فى فكر

---

(١) السابق - ص ٥٠ .

المذهب ونشأته " للدكتور عبد المجيد أبو الفتوح بدوى ، والأخير بحث عن الإباضية بسلسلة " دراسات عربية وإسلامية " للدكتور عبد الفتاح الفاوى وكلها تنزع إلى الإنصاف والموضوعية ، وجمع كلمة الأمة بدلا من الفرقة والعصبية المذهبية .

وما أحوجنا إلى مزيد من التعاون والتواصل ، والإنصاف والاحترام المتبادل ، وعسى أن يكون لقاؤنا اليوم خطوة فى هذا الاتجاه ، ولم أقرأ فى هذا الشأن أجمل من كلمات المرحوم الأستاذ على يحيى معمر : "إن المذهبية فى الأمة الإسلامية لا تتحطم بالقوة ، ولا تتحطم بالحجة ، ولا تتحطم بالقانون ؛ فإن هذه الوسائل لا تزيدها إلا شدة فى التعصب وقوة فى رد الفعل . وإنما تتحطم المذهبية بالمعرفة ، والتعارف ، والاعتراف . فبالمعرفة يعرف كل واحد ما يتمسك به الآخرون ، ولماذا يتمسكون به . وبالتعارف يشتركون فى السلوك والأداء الجماعى للعبادات . وبالاعتراف يتقبل كل واحد منهم مسلك الآخر برضا ، ويعطيه مثل الذى يعطيه لنفسه ؛ اجتهد فأصاب أو اجتهد فأخطأ ، وفى ظل الأخوة والسماحة تغيب التحديات ، وتجد القلوب نفسها ، وتحاول أن تصحح عقيدتها وعملها ، بالأصل الثابت فى الكتاب والسنة " (١) رحمه الله .

٢- **الجانب الاعتقادى** ، وسمته المميزة (الاعتدال والوسطية مع الالتزام والإيجابية) :

تمثل العقيدة لدى المسلمين ، وسائر المتدينين ، الأساس الراسخ لبناء الشخصية ، بما تحدده من نظرة خاصة إلى الوجود والكون ، والحياة والإنسان ، والمبدأ والمصير ، وبما ترسمه من هدف للمؤمن فى حياته ، وما تقدمه له من نموذج أخلاقى يهدى سلوكه ويسدد خطاه .

---

(١) على يحيى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية نشر مكتبة وهبة بالقاهرة١٣٩٦/١٩٧٦، ص ١٠٢ .

وتلك أمور بالغة التأثير فى تكوين الشخصية ، ورسم سماتها ، وتلوين سلوكها ، وبخاصة لدى من يعتقدون أن الإيمان الدينى ليس مجرد شعار لفظى أو اقتناع عقلى أو تسليم قلبى ، بل هو مع ذلك كله سلوك عملى - أيضا - ؛ إنه "تصديق بالجنان ، ونطق باللسان ، وعمل بالأركان " كما يقول الجمهور من متكلمى الإسلام ، وكما يتمسك إخواننا الإباضية بوجه أخص (١) .

وليس محض صدفة أن يقرر مؤرخو الإباضية ، من أنصارهم وخصومهم على السواء ، ما تميز به القوم من التزام بالخلق الدينى ، وتحر للحلال واجتناب للحرام ، وتمسك بالصدق والعدل والإنصاف (٢) ، وإنما هو ثمرة طبيعية للربط الوثيق لديهم بين الإيمان والعمل ، والفكر والسلوك ، كما تنطق به آيات القرآن الكريم ، ولمعارضتهم " الإرجاء الغالى " الذى يجعل الإيمان كلمة جوفاء ؛ أو جواز مرور زائفا ؛ فال يضر مع الإيمان - كما زعموا - معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة (٣) .

وجملة التوحيد كما يبينها الشيخ إطفيش " أن من شهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، واعتقد أن ماجاء به محمد من عند ربه هو الحق ، وآمن بأن

---

(١) انظر د . عبد الفتاح الفاوى : الإباضية - الطائفة والمذهب (ضمن سلسلة دراسات عربية وإسلامية) العدد ١٤ - ص ٤٩ ، د. عمار طالبى : آراء الخوارج ط الأسكندرية ١٩٧١م-١-٣، والتفتازانى شرح العقائد النسفية ط صبيح بالقاهرة ، ص ٢٠٨ ، بكير سعيد أحوشت : دراسات إسلامية فى الأصول الإباضية ، نشر وهبة بالقاهرة ١٤٠٨/١٩٨٨م ، ٥٠-٥٣ .

(٢) انظر رفعت فوزى عبد المطلب : الخلافة والخوارج فى المغرب العربى ، ط القاهرة ، ١٩٧٣/١٣٩ ، المقدمة وأحمد أمين : ضحى الإسلام القاهرة ، ١٩٤٩ ، ٢٣/٣ ، والملطى : التنبيه والرد ص ٥٣ .

(٣) انظر حسن الشافعى : المدخل إلى دراسة علم الكلام ، ط ٢ القاهرة ١٤١٤هـ،ص٦٠-٦٤.

الموت حق ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وآمن بالقضاء والقدر ، من أقر بأن الأمور التى كان يدعو إليها النبى صلى الله عليه وسلم هى عقيدته ، فقد تم إيمان فيما بينه وبين الله ، وفيما بينه وبين الناس " (١) .

ولست أريد هنا أن أعدد تفاصيل العقيدة لدى إخواننا من أهل الاستقامة ، ولا أظن ذلك لازما فى مقامى هذا ، ولكنى أود أن انوه بأمور عكست نفسها فى شخصية المسلم الإباضى على مدار التاريخ ، وطبيعى أن ترى فى شخصيته المعاصرة – أيضا – ، منها ذلك الترابط بين الإيمان والعمل وما يثمره من إيجابية والتزام وقد أسلفناه ، ومنها التوازن والاعتدال وإنكار الغلو والتطرف ، ومنها أن التزام ذلك الموقف المعتدل المتوازن لم يكن أمرا هينا يسيرا ، بل كان شديدا عسيرا، بذل فيه القوم من ذات أنفسهم ، وخاصموا من أجله ، ونصحوا لله فيه ، واحتفظوا بولائهم جهد طاقتهم للحق لا للرجال ، سأعرض هنا سريعا للأمرين الأخيرين . (الأول طابع السماحة – والثانى ما بذلوه فى التمسك به) .

أ- فى الإيمان والكفر

أ – ليس صحيحا أن الإباضية يكفرون مخالفيهم ، كما ينسب إليهم البعض فى القديم والحديث (٢) . بل هم مع تشددهم فى ربط الإيمان بالعمل يرون أن مرتكب الكبيرة المصر عليها المعرض عن التوبة فاسق كما وصفه القرآن ، لكنه موحد ليس بمشرك ، ولا يخرج بمعصيته هذه صغيرة كانت أو كبيرة عن الملة ، والعصمة ثابتة له فى دمه وماله ، ولئن وصف بالكفر – جريا على ما ورد فى بعض الأحاديث – فالمراد كفر النعمة لا كفر الملة ، حيث لم يشكر نعمة ربه فى خلقه

---

(١) انظر : الفاوى : مرجع سابق ٤٨ .

(٢) معمر : مرجع سابق ص ١٧ – ١٥١ ، والفاوى : مرجع سابق ٤٧ .

وفى هدايته ، وعليه المسارعة إلى التوبة فى الدنيا هربا من الوعيد الشديد فى الآخرة (١) .

ب- فى الصفات الآلهية

والله تعالى منزه عن كل نقص ، وعن كل مشابهة بالمخلوقين ، " ليس كمثله شىء وهو السميع البصير " وهو متصف بكل كمال فى الوقت نفسه دون تمثيل أو تعطيل ، عالم مريد قادر ، ولكن هذه الصفات ليست معانى أزلية قديمة مغايرة للذات ، ويشتدون فى أمر الرؤية فهى فى نظرهم غير ممكنة لارتباطها بشروط مادية يجب تنزيه الله عنها (٢) ، ويميلون إلى تأويل الصفات الخبرية من الاستواء ونحوه حتى ليرى البعض أنهم " أول من فتح باب التأويل (٣) ، فتابعهم المعتزلة فى ذلك وفى التحسين والتقبيح - أيضا - (٤) " وأحسب أن ظروف الفريقين مختلفة وإن تشابهت بعض الآراء أحيانا .

جـ- فى الجبر والاختيار

وقد يوضح ذلك أن " أهل الاستقامة " من الإباضية قائلون بالكسب فى أفعال العباد فالله خالقها وهم لها عاملون ومكتسبون ، فلا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين بين ، بما يبعدهم عن المعتزلة كثيرا ، ويقربهم من الأشاعرة أو بالأحرى من الماتريدية ، وجماهير المحدثين والسلف وقدماء الشيعة أيضا (٥) .

---

(١) عمار طالبى : مرجع سابق ٤١- ٤٦ ، ١١٦ .

(٢) بكير بن سعيد : مرجع سابق ٤٢ - ٥٨ .

(٣) عمار طالبى : مرجع سابق ٩ ، ١١٧ - ١٢٠ .

(٤) السابق ١١٣ - ١١٧ ، وقارن الفاوى : مرجع سابق ٦٠ .

(٥) انظر حسن الشافعى : لمحات من الفكر الكلامى ، ط أولى القاهرة ١٤١٣هـ - ص٣١٣ وما بعدها.

د- فى العقل والنقل

وأما فى منهج الاستدلال على الأحكام الاعتقادية فالقوم متوازنون بين جمود الحشوية على النصوص ، وغلو المعتزلة فى التحسين والتقبيح العقليين ، فهم وإن قالوا بتحسين العقل وتقبيحه لبعض الأمور فلا يأخذون به مقابلة الحكم المنصوص ، ويرون أن الحجة لا تقوم لله على الناس إلا بإرسال الرسل ، لقوله - سبحانه - " **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** " (الإسراء /١٥) فلا تكليف قبل ورود الشرع الشريف ، " وأن الناس لم ينالوا شيئا من معرفة الله فى الدلالة على توحيده ، ولا من معرفة شىء من دينه إلا بتوفيق من الله لهم على ألسنة رسله وتنبيه منه لهم على أيديهم " (١) . وهكذا يحرص القوم فى مختلف المسائل الاعتقادية على التوازن والاعتدال والوسطية ، سواء بلغوا ذلك فى كل الأحوال أو عز عليهم بلوغه أحيانا .

هـ- فى مسائل أخرى

ونود قبل ان نترك هذه النقطة أن نشير إلى أن القوم فى مسألة الحكم على الصحابة - وهى إن شئنا المصارحة إحدى المسائل البالغة الحساسية التى كلفت الحركة الإباضية الكثير- قد مالوا إلى ضرب من التوقف ، حتى ليقول أحد الباحثين المحدثين المصريين : " ومما يدعو إلى التفاؤل أن المتأخرين من الإباضية يرون التوقف فى مسألة الصحابة وعدم الخوض أولى " (٢) ، وهى مسألة تاريخية على كل حال لا يترتب عليها عمل ، ولا ينبغى أن تكون مثار فرقة أو خلاف ، كمسألة خلق القرآن التى يختلف فيها النظر الإباضى نفسه بين المشارقة والمغاربة ، وقد

---

(١) الفاوى : مرجع سابق ٤٩ .

(٢) رفعت فوزى : مرجع سابق - المقدمة ص د .

تجاوزتها الأحداث ، ولا ينبغى الوقوف عندها الآن (١) .

ب- أما النقطة الأخرى التى أشرت إليها آنفا : فهى أن التزام الإباضية بهذا الموقف الوسطى المعتدل إلى حد كبير قد كلفهم الكثير ، ولكنه ميزهم عن غيرهم من المعاصرين فى الوقت نفسه ، يحكى أن واصل بن عطاء - وكان يتمنى لقاء أبى عبيدة - قيل له هذا أبو عبيدة فى الطواف ... فقام إليه وقال : أنت أبو عبيدة ؟ نعم، قال: أنت الذى بلغنى أنك تقول : إن الله يعذب على القدر ؟ فقال أبو عبيدة : ما هكذا قلت ، لكن قلت إن الله يعذب على المقدور . فقال أبو عبيدة : وأنت واصل بن عطاء ؟ قال : نعم ، قال : أنت الذى بلغنى عنك أنك تقول : إن الله يعصى بالاستكراه ؟ قال : فنكس واصل رأسه ولم يجب بشىء ثم قال : بنيت بناء منذ أربعين سنة فهدمه وأنا قائم لم أقعد ولم أبرح مكانى " (٢) . وبرغم أية ملاحظات على القصة التى جاءت فى المصادر الإباضية ، وبخاصة التعقيب الأخير من واصل ، فهى تصور على أية حال طبيعة العلاقة بين الموقفين الإباضى والاعتزالى.

وربما كان الأشق من ذلك هو مفاصلة الإباضية للرفاق السابقين من الأزارقة والصفرية والنجدات ، وتقديمهم ولاء الحق على رفاق الأمس ، فعندما جاءت رسالة نافع - كما يروى الطبرى والمبرد - يدعو ابن صفار وابن إباض إلى اللحاق به ، وأن من تخلف عنه لا نجاة له ، بل هم أهل للبراءة منهم ، وأنهم كغيرهم من المخالفين كفار لا تحل مناكحتهم ، ولا أكل ذبائحهم ، ولا قبول شهادتهم، ولا أخذ الدين عنهم ، وأن استعراض المسلمين وقتل أطفالهم حلال ؛ لأنهم

---

(١) انظر عمار طالبى : مرجع سابق ٢٦٧ وقارن الفاوى ٥٤-٥٦ .

(٢) بكير بن سعيد : مرجع سابق ٥٩-٦٠ ، وقارن بالمناظرة بين معتزلى وإباضى التى يرويها الدرجينى فى طبقاته ١٦٨/١١ ط الجزائر ١٩٧٤م .

مثل كفار العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل . قال ابن إباض : قاتل الله نافعا! أى رأى رأى ؟ لقد صدق لو كان القوم مشركين ، وكانت سيرته كسيرة النبى فى المشركين ، لكنه كذب وكذبنا فيما يقول . إن القوم كفار بالنعم والأحكام وهم برءاء من الشرك .... فقال ابن صفار : برئ الله منك فقد قصرت ، وبرئ الله من ابن الأزرق فقد غلا . فقال ابن إباض : برئ الله منك ومنه . وتفرق القوم (١) .

إنه موقف فاصل يؤكد اعتدال المذهب وحرصه على وحدة الأمة ، ورفضه للغلو والتطرف ، وهو مثل حرى بأن يحتذى فى التاريخ العربى المعاصر الذى تلم به أعراض الغلو والتطرف ، دينيا كان أو غير دينى ، وقد احتضنت عمان هذا الموقف المعتدل ، الذى زايد عليه الغلاة ولم يرض عنه الطغاة ، بل قاتلت دونه "لعدم تقبلها لأفكار الخوارج المتطرفين " (٢) ، وردت عنها كتائب النجدات التى حاولت الغزو ونجحت إلى حين ، وقاتلت الصفرية تحت قيادة ابن الجلندى أول خليفة إباضى ، ثم الأمويين من بعد . واضطرت للتراجع ، حتى استعادت دولتها المستقلة عام ١٧٧هـ بعد قرابة قرن ونصف القرن ، وتشبثت بالمذهب المعتدل الذى أصبح – كما يقول د . خليفات – " المذهب السائد فى عمان ، واعتنقه معظم سكان ذلك القطر ، ولا تزال أغلبية سكانه تعتنق هذا المذهب حتى يومنا الحاضر " (٣) ومنه أخذت الشخصية العمانية " سمة الاعتدال والوسطية مع الالتزام الأخلاقى والإيجابية " .

---

(١) عبد المجيد أبو الفتوح بدوى : مرجع سابق ٤٠- ٤١ ، وعمار طالبى : مرجع سابق ١١٣.

(٢) خليفات : مرجع سابق ١٢٧ .

(٣) السابق ١٣٢ .

٣- الجانب العلمى والفكرى - (ويميز بالتفتح والسماحة والعقلانية) :

لا يكاد المتابع لتاريخ الفكر الإباضى يقضى العجب والإعجاب بالروح العلمية المبكرة التى حظى بها منذ عقود حياته الأولى ، وخلال القرنين الأول والثانى الهجريين ، وربما تيسر له من تفتح وسماحة وعقلانية ، فى الوقت نفسه .

ويرجع أكبر الفضل فى ذلك إلى القادة الموهوبين ، والأئمة البارعين الذين قاموا على شئونه منذ البداية : ويأتى فى مقدمتهم العمانى العبقرى جابر بن زيد (١٨-٩٣هـ) وهو صاحب أول ديوان مكتوب فى تاريخ العلم فى الإسلام ، كان يضم فتاواه ومروياته فى مجلدات عشر ، فقدت جميعا ، ولم يبق له إلا قليل من "الجوابات" على مسائل محدودة ، وهو المؤسس الحقيقى للمذهب ، ولم يكن إماما مستورا ، يغطيه ، كما يرى بعض الباحثين ابن إباض الذى لم يكن إلا زعيما عمليا، بل كان جابر فقهيا للبصرة وللأمة كلها ، يكره - كغيره من الأئمة - أن يقلده الناس، ويلتزموا رأيه ، فيقول منكرا على من يسجلون آراءه الفقهية : "يكتبون عنى رأيا أتحول عنه غدا " (١) . وقد تلقى العلم عن مصدره الأصيل من أصحاب النبى وأمهات المؤمنين ، وعلى رأسهم ابن عباس ترجمان القرآن وحبر الأمة الذى قال عنه : " لو أن أهل البصرة نزلوا على قول جابر بن زيد لأوسعهم علما عما فى كتاب الله " (٢) وأغلب الظن أنه هو الذى بلور فكرة التمييز بين كفر النعمة وكفر الملة ، ولعله ورثها عن شيخه ابن عباس (٣) ، كما ورث بذرة الاعتدال الأولى

---

(١) د. أحمد درويش : جابر بن زيد - حياة من أجل العلم (سلسلة أعلام العرب بالقاهرة) العدد ١٤٠ ، ١٩٩١م - ص٥٦ .

(٢) السابق ٤٣ .

(٣) راجع تفسير القرآن العظيم لابن عباس ، الجزء الأول عند تفسير آية " **ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون** " من سورة المائدة .

التى ولدت فى "النهروان" وقام عليها قبيلة أبو بلال حتى جاء هو فى النصف الثانى من القرن الهجرى الأول فقام عليها حتى استوت نبتا قويا فى عقده الأخير .

ثم جاء من بعده تلميذه أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة - رضى الله عنه -، وهو وإن لم يبلغ مبلغه فى الفقه فإنه - كما يلاحظ عدد من الباحثين (١) كان موهوبا فى مجالى الدعوة والتنظيم ، فلئن غلب على جابر التنظير الفقهى فقد غلب على تلميذه التنظيم الدعوى ، بينما غلب على الربيع بن حبيب التدوين والتوثيق العلمى فى مجال الحديث ، فكتب جامعه الذى ما يزال مرجع الإباضية وعمدتهم فى السنة حتى اليوم ، مع حرصه على شئون الدعوة أيضا ، وقد كان مثل خليفته فى توجيه شئون الدعوة وقيادتها محبوب بن الرحيا - أزديا عمانيا (٢) .

حتى لا يتخيل البعض أن هؤلاء القوم كانوا مهيجين يعملون على تصدير الثورة ، وإعداد جنودها وإمداد وقودها ، وهو مفهوم حديث أو معاصر لا ينبغى أن نستسلم لإغراء خلعه على الماضى ، نعيد إلى الأذهان فى هذا المقام ما رواه الطبرى من أنه " اجتمع نفر من الخوارج فى البصرة فقالوا : لو خرج منا خارجون فى سبيل الله ، فقد كانت منا فترة ، فيقوم علماؤنا فى الأرض فيكونون مصابيح الناس يدفعونهم إلى الدين ... (٣) وهذا تطوير لمعنى الخروج يقترب مما تستعمله بعض الهيئات الإسلامية فى وقتنا الحاضر . ولإخواننا الإباضية موقف من مصطلح "الخروج" ؛ وهم يقصرونه على المروق من الدين ، ويحكمون - كما مر بنا موقفهم من الأزارقة - على المستحلين لدماء المسلمين حكما قاسيا ويتبرأون

---

(١) انظر خليفات ص ١٠٣ وعبد المجيد بدوى ٦٥ وما بعدها .

(٢) خليفات .

(٣) انظر تاريخ الطبرى ٥ / ٥٦٧ .

منهم (١) ، ومن الخوارج عامة وهم يرون – ولعل الفضل فى تأكيد هذا يرجع إلى جابر بن زيد – أن القعود عن مثل هذا اللون من الخروج أليق بالمؤمن ، وهنا يقول الدكتور عمار الطالبى : " والواقع أن الإباضية أقرب الفرق إلى السلف من أهل السنة ، وهذه الحقيقة قررها مصدر قديم من المصادر الموثوق بها ، وهو كتاب المبرد ، حيث ورد فيه : (وقول عبد الله بن إباض : هو أقرب الأقاويل إلى السنة)(٢) .

فالقوم عملوا على نشر العلم الإسلامى أساسا ، وهو يرتبط بالعمل ، كما هو مقرر فى المصادر الشرعية ، وقوموا به ما استطاعوا من اعوجاج النفوس والاوضاع فى عصورهم طبقا لهذا المفهوم ، ولذا فلا محل للإسراف فى خلع مفهومات لاحقه ، على أحداث الماضى ، فإنها قد تعوق الفهم أو تضلله فى بعض الأحيان .

ولعله من الأنفع لنا أن نرصد بعض الظواهر العلمية والتعليمية التى قدمتها الحركة الإباضية ، فى سياق تطوير التربية الإسلامية وتاريخ العلم فى الإسلام :

أ– فمن ذلك الوعى المبكر بأهمية التدوين ووضع قواعد التوثيق والضبط العلمى للروايات والآراء ، وممارسة ذلك فعلا على نحو سبقوا به غيرهم من الفرق الإسلامية ، ويرجع الفضل فى ذلك – كما بين الدكتور أحمد درويش (٣) – إلى الإمام الحقيقى للمذهب ، جابر بن زيد ، الذى امتد أثره فيمن بعده ، وبخاصة الربيع ابن حبيب – رضى الله عنهما – .

---

(١) عمار طالبى ٢٩ – ٣٠ ، ومعمر : الإباضية دراسة مركزة عن أصولهم ، وهبة بالقاهرة ص ٤٠ .

(٢) السابق ١١٦ .

(٣) انظر أحمد درويش : مرجع سابق ٧٩– ١٠٩ .

ب- ومن ذلك - أيضا - فكرة " المؤسسات التعليمية " وهى ناحية جديرة بالدراسة من رجال التربية والدعوة : " فمدارس حملة العلم " التى توسل بها الإمام أبو عبيدة بالبصرة - إلى جانب الحلقات العامة - لإعداد الداعية الفقيه ، وما سادها من تقاليد ، وما استقبلته من أفواج الطلاب ، وما نجم عنها من آثار ، فى تاريخ الحركة وفى الحياة الإسلامية بوجه عام ، كل أولئك أمور جديرة بالدراسة الجادة ذات العائد على حياتنا الحاضرة - دون تغليب العامل الحركى أو السياسى كما غلب على البحوث السابقة (١) .

ومن ذلك - أيضا - " نظام العرابة " الذى شاع بين إباضية المغرب وبخاصة فى الجزائر ، وفى جربة بتونس أيضا ، وقد نمت فيه تقاليد ونظم فى الإدارة التعليمية والتربوية جديرة بالدراسة ، وتعتبر سابقة لعصرها إلى حد كبير ، كتوحيد الزى ، والعناية بالمعوقين ، وبالفروق للدارسين ، وبالأقسام الداخلية ونظم الإعاشة ، وبالرحلات والقوافل التعليمية ، وبالمرأة كأم بديلة لصغار الطلاب ، إلى غير ذلك من الجوانب الهامة فى الإدارة التربوية ونظم التعليم (٢) .

جـ- ومن الأمور الهامة فى هذا الصدد التنبه لأهمية العمل الجماعى العلمى أو " الفرق العلمية " ، فقد اشترك سبعة من علماء الإباضية بالمغرب فى تأليف موسوعة فقهية ، فى خمسة وعشرين جزءا ، أطلق عليها اسم " ديوان الأشياخ " ويعتبر هذا الديوان من أهم المراجع فى " الفقه الإباضى " - الذى يمثل جانبا بالغ القيمة والخطر من الفكر الإباضى - وهو لا يزال محفوظا فى المكتبات الخاصة ، وربما وجدت منه أجزاء فى دار الكتب المصرية . وبعده تم تأليف " ديوان العرابة " اشترك فى تأليفه عشرة من العلماء " (٣) وتلك ناحية فى تاريخنا الثقافى جديرة

---

(١) مثلا خليفات ١٨٠ - ١٧١ ، وعبد المجيد بدوى : ٦٧ وما بعدها .

(٢) انظر معمر : الإباضية دراسة مركزة ٣٩ ، والفاوى : مرجع سابق ٤٣ .

(٣) انظر معمر : الإباضية دراسة مركزة ٣٦ .

بالدراسة ، والتتبع ، فلدينا مجموعات من الفتاوى وبعض جهود التقنين الفقهى التى حظيت بمثل هذا التنظيم الجماعى ، غير أنها نادرة فيما يبدو ، وقد توسع فيها الغربيون بحكم التطور الثقافى والتقدم العلمى ، ونحتاج فى الحقيقة إلى مزيد من العناية بها ، حيث لم يعد التقدم العلمى رهنا بالجهود الفردية كما كان فى الماضى .

د- ولعلى أكتفى فى هذا المقام بالإلماح إلى روح التفتح العلمى والثقافى فى المؤسسات المشار إليها ؛ إذ لم تقتصر حلقات " حملة العلم " على إمداد الدارسين فيها بفروع الثقافة الإسلامية الأصيلة من لغة وفقه وتاريخ ، بل قدمت لهم إلى جانب ذلك " علوم الفلك والرياضيات ... فضلا عن تبصيرهم بفنون الحكم وأساليب السياسة ... " (١) .

وليس ذلك بمستغرب على مذهب يقوم على العقل والنقل معا ، ويتجه إلى الإنسان من حيث هو ، دون تمييز جنسى أو عنصرى أو قبلى . وقد أخذت الحضارة الإسلامية فى عصور ازدهارها ، من الشرق والغرب ، ما أعطاها مكانها ومكانتها المتميزة فى التاريخ العقلى للإنسانية .

وليس بمستغرب - أيضا - ما نجده فى عمان المعاصرة من عناية بالمؤسسات التعليمية والجامعية ، ومن روح علمية توثيقية وجهود مرموقة فى ميدان إحياء التراث ، مع التفتح على الثقافة المعاصرة ، دونما تعارض موهوم بين الأصالة والمعاصرة ، ولعل ذلك التوجه ثمرة لاختمار تلك القيم الثقافية والحضارية فى التربة العمانية بفضل هؤلاء الأسلاف وجهودهم الرائدة .

---

(١) عبد المجيد بدوى ٦٧ .

٤- **الجانب العملى والاجتماعى** (ويتسم بمفهومى التكافل والمساواة) :

يبرز فى الفكر الإباضى العناية بمفهوم " الأمة " وحقوقها ، وهو ما يعرف فى الفقه الإسلامى " بحقوق الله " - تعالى ، ولكن مرجعها فى الواقع إلى حقوق المجتمع المسلم ومصالحة . كما يعنون - أيضا - " بفروض العين " التى يطالب بها الفرد المسلم فى كل أحواله بحسب شروطها وأوضاعها الشرعية ، وبفروض الكفاية التى هى عبارة عن مسئوليات جماعية تطالب بها الأمة ، فإن قام بها من تتم بهم الكفاية ويتحقق الغرض سقط الطلب عن الباقين ، وإلا أثمت الأمة جميعا . ومن أظهر هذه الأمور واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو طابع مميز للأمة المسلمة ، ما دامت قائمة على أصولها . الشرعية المرعية " **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون**"(١) .

وهذا هو الاصل الأصيل وراء جهود القوم وتضحياتهم ، ومساعيهم الدائبة لخدمة الأمة والدفاع عن قيمها الأصيلة ، ورثته عنهم فرق أخرى كالمعتزلة وغيرهم ، وهو على كل حال مبدأ أصيل فى الشريعة الإسلامية ذاتها . لكن بعض الباحثين يركز على تطبيقاته السياسية فى مجال الإمامة والنشاط السياسى بوجه عام، وهى ناحية من أبرز النواحى فى التراث الإباضى بلا شك ، وللقوم فيها إنجازات ومواقف مشهودة . ونود هنا أن ننوه - أيضا - بتطبيقاته الاجتماعية على سواء .

أ- فمن الناحية السياسية

١- يقرر الفكر الإباضى ضرورة إقامة الدولة التى تقيم الحدود وتنفذ الأحكام ، ويرفضون قول " النجدات " ، ومن وافقهم على عدم ضرورة إقامة الإمام.

---

(١) آل عمران : الآية رقم ١٠٤ .

ويرون أن هذا القول يؤدى إلى تعطيل حدود الله ، وإلى تضييع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (١) ، أى أن غياب الدولة يؤدى إلى الفوضى فى المجتمع المسلم ، ويعطل فروض الكفاية أو أكثرها ، وهى تكليفات جماعية لا مناص من القيام بها وإلا أثم جميع المسلمين . وأحسب أن ضرورة قيام الدولة فى كل مجتمع إنسانى - وطنيا أو قوميا أو عقائديا - هو أمر مستقر فى التجربة الواقعية وفى الفكر السياسى فلسفيا كان أو علميا ، وأصبحت النزعات المضادة القائلة بتقليص الدولة أو إمكانية الاستغناء عنها إما عدمية فوضوية ، أو خيالات فلسفية وهمية ، لا وزن لها فى مجال التطبيق .

٢- لكن الأهم من ذلك هو المبدأ الشورى ، أو الديمقراطى إن استخدمنا ألفاظ العصر ، الذى يتمسك به الفكر الإباضى منذ فجر ولادته ؛ " إن الإمامة يجب أن تكون حقا عاما لكل أفراد الأمة ، يتولاها منهم من تتوفر فيه شروطها ، ومن يقع عليه الاختيار من قبل الأمة ، وإن لم يكن قرشيا (٢) . إن الطابع الديمقراطى للفكر السياسى الإباضى يقوم على مبدأ المساواة الإنسانية ، تكافؤ الفرص بين أبناء الأمة كافة . وكل منصب عام فهو حق لمن توفرت فيه شروطه إذا اختير له من قبل السلطة الشرعية ، وللإباضية فى مجال الشروط وعناصر الكفاية اللازمة للوظائف العامة " مزيد اهتمام باشتراط صفتى العلم والعدالة " (٣) والمقصود بهما الكفاية الفنية والمتانة الخلقية ، وهم يستنبطون ذلك من قول الله سبحانه : " **إن خير من استأجرت القوى الأمين** " (٤) وقوله - عز من قائل - على لسان يوسف - عليه

---

(١) عمار طالبى : ٢٧٤ .

(٢) عبد المجيد بدوى ، ص ١١ .

(٣) السابق ١٥٣ .

(٤) القصص : آية ٢٦ .

السلام - " اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم " (١) .

٣- أما مسألة القرشية التى يقول عنها أحد الباحثين : " ليس بين الإباضية وجمهور أهل السنة من خلاف فيما يتعلق بمواصفات الإمام فى شىء واحد ؛ هو النسب (٢) ، فقد احتفظ فيها الفكر الإباضى بموقفه الوسط ، وحافظ فى الوقت نفسه على مبادئه التى استخلصها من الشريعة نفسها ؛ فقرر أن القرشية ، التى أشارت إليها بعض الأحاديث ، وهى شرط مرجح فقط لا يلغى الحق العام فى تكافؤ المسلمين ؛ بمعنى أن القرشى يكون أولى بهذا الأمر عندما يتساوى مع غير القرشى فى الصفات المطلوب توافرها " (٣) ، وأحسب أن هذا هو ما انتهى إليه الفكر السياسى عند أهل السنة أو قريب منه ؛ إذ يقول سيف الدين الآمدى عنه فى كتاب "غاية المرام " : " ولعمرى إن مثل هذا الشرط واقع فى مجال الاجتهاد (٤) ، ولعلهم نظروا إلى ظروف العصر ، وصعوبة تحقق القرشية ، أو أن المقصود بها الشوكة واستتباع الناس (٥) . فإذا كان هذا هو محل الخلاف الوحيد - فى هذا الصدد - فيجب أن ينتهى الخلاف .

٤- أما موضوع " الخروج " فهو يؤكد ما قررناه مكررا من طابع الاعتدال والوسيطة فى الفكر الإباضى ، فدار المخالفين دار إسلام لا تجوز الهجرة منها ولا

---

(١) يوسف الآية : ٥٥ .

(٢) عبد المجيد بدوى ١٥٠ .

(٣) السابق ١٥١ .

(٤) انظر الآمدى : غاية المرام ، ط مصر ١٩٧١ ، ل ١٤٤ ب .

(٥) انظر ابن خلدون : المقدمة ، ط التجارية بمصر ١٩٤ - ١٩٦ ، وقارن عبد المجيد بدوى : مرجع سابق ١٥٢ .

الغارة عليها ، وليس الخروج على السلطان الجائر بواجب بل هو جائز بشروطه ، اللهم إلا من غلبته روح الفدائية أو " الشراء " فله ذلك ، دون أن يلزم الأمة أو جميع " أهل الاستقامة " بمشاركته المخاطرة بنفسه ، التى اشترطوا لها أيضا بعض الشروط الفقهية . أريد أن أذكر هنا مرة ثانية أن هذا هو موقف أهل السنة تماما من (المتغلب) أو الحاكم المفتقد لشروط الكفاءة ، أو الذى لا ترتضيه الجماعة (١) .

٥- تبقى مسائل فرعية أخرى مثل جواز تعدد الأئمة فى العصر الواحد عند الإباضية وقد أخذ بها بعض أهل السنة أيضا فيما بعد (٢) . ومسألة التفضيل بين الخلفاء ، وقد مر بنا الاتجاه المعتدل لدى متأخرى الإباضية إلى إيثار التوقف فيها . وعنها يقول ابن تيمية : " إنها ليست من الأصول التى يضلل المخالف فيها عند أهل السنة " (٣) .

وبعد ؛ فإن أروع ما فى الفكر الإباضى السياسى هو روح المساواة الإنسانية ، ومبدأ الشورى أو الديمقراطية الذى يقوم على هذه المساواة ويتسق مع مذهب يحترم العقل والخبرة مع الالتزام بالوحى والشريعة ، وهو ما يحق للعمانى المعاصر أن يفخر به اليوم ، فى عالم يعتبر هذه المبادىء أساس الشرعية فى كل المجتمعات الإنسانية .

ب- أما من الناحية الاجتماعية

فإن روح المساواة والتكافؤ والتكافل بين المسلمين فى حياتهم الاجتماعية التى تتخلل الفكر الإباضى لا تقتصر على المجال السياسى بل تمتد إلى الحياة

---

(١) انظر بدوى : ٤٦ ، ١٥٦ وقارن حسن الشافعى : لمحات من الفكر الكلامى ، دار الثقافة العربية بمصر ١٤١٣ هـ ، ص ٣٦٠

(٢) انظر السنهورى : الخلافة .

(٣) ابن تيمية : العقيدة الواسطية ط مصر بلا تاريخ ، ص ٢٦ .

الاجتمـــاعية أيضـا ، وهى النـاحية التى نود أن ننوه بها فى هذا المقام ، وإن أغلها أكثر الباحثين الذين تجذبهم الافكار والتطبيقات السياسية بوجه خاص .

١- وأول ما نذكره فى هذا الصدد حرص الإباضية على وحدة الأمة ، وعدم تبديد طاقتها فى الخلافات الداخلية ، والمفاصلة مع أدعياء الخروج وضحايا الطموح السياسى والمراهقة الفكرية . وإذا كان ابن إباض قد عبر عن هذا الموقف فى حسم ، وذادت عمان عن حياضها موجات البغاة والغلاة من النجدات والصفارية، فإن الفضل الأكبر يعود إلى إمام المذهب جابر بن زيد الذى جعل أساس توجيهه لأهل الاستقامة مبادئ ثلاثة : هى عدم الهجرة لمجتمع المخالفين من الموحدين ، وكفكفة نوازع الخروج والاحتكاك بالسلطة ، والانصراف إلى الدعوة والتربية ، مؤثرا أن يبنى للمستقبل بدل أن يبدد قوى الحاضر ، وأن ينظر إلى المجتمع ككل بدلا من التركيز على السلطة أو الصفوة الحاكمة (١) . ثم جاء بعده تلميذه أبو عبيدة فعمل على أن يجعل - كما يقول د. خليفات - " من أتباعه مجتمعا تسوده المودة والمحبة والإخاء ... وتسيطر عليه روح الجماعة ، وكان يحثهم على التآلف والتعاون فيما بينهم ، كما طلب من الأغنياء أن يكونوا عونا للفقراء وسندا لهم ... وقد لبى الأثرياء منهم هذا الطلب بحماس شديد " (٢) ؛ " فلم يكن العلم عند جابر بن زيد والصفوة من علماء عصره - كما يقول د . أحمد درويش - مجرد بحث جاد واستقصاء متصل ... وإنما كان العلم سلوكا ... ومحاولة لإقامة مجتمع إسلامى حقيقى " (٣) . وهذا ما نرجوه أن يقدمه المجتمع العمانى الناهض نموذجا للأمة الإسلامية فى أزمتها الحاضرة .

٢- ومن الظواهر التى تسترعى النظر فى الحركة الإباضية عنايتها

---

(١) انظر عبد المجيد بدوى ٦١ - ٦٢ .

(٢) خليفات : مرجع سابق ١١٣ .

(٣) أحمد درويش ١١١ .

بالشباب ، ولئن كان هذا الأمر طبعيا فـى مجتمعاتنـا اليـوم فإنـه لـم يكـن كذلـك فـى الماضى .ولعل النزعة الإيجابية ، والروح العقلانية المتحررة ، والالتزام الأخلاقـى، والاهتمام بهموم الأمة فى الفكر الإباضى ، أمور راقت للشباب واستقطبت جهده فى ذلك الزمان المتقدم ، فتلاقى وعى الشـيوخ بحمـاس الشـباب . ولا نكـاد نجـد بـروزا للظاهرة الشبابية ، لدى الدعـوات المختلفـة التـى زخـر بهـا المجتمـع الإسـلامى فـى الماضى ، كما هو الحال فى الحركة الإباضية . وقـد كـانوا يحفظوننـا بـالأزهر مـن خطب أبى حمزة الشارى فـى أهـل مكـة : " وتذكـرون أصحـابى ، تعيروننى بـأنهم شباب . شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشـر أعينهـم ، ثقيلـة عـن الباطل أرجلهم ، فنظر إليهم ربهم فى جوف الليل وهم قيام على أجزاء القـرآن كلمـا مر أحدهم بآية فيها ذكر النار بكى خوفا منها ، أو آيـة فيهـا ذكـر الجنـة طـار شـوقا إليها ... " فهل يعيد شباب اليوم صور الأسلاف فى بناء مجتمعاتهم على أساس مـن الالتزام الأخلاقى والسمو الروحى والإيجابية ؟؟

٣- والمرأة أيضا ، قد يستغرب بعض المعاصرين ، نعم ، لقـد عنيـت هـذه الحركة العجيبة بأمر المرأة المسلمة ودورها فى بناء المجتمـع وتنميتـه وإصلاحـه ؛ فالمهمة واحدة والمسؤلية عن ذلك مشتركة فـى منطـق القـرآن الكريـم " **والمؤمنـون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكـر ويقيمـون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيـز حكيم** " (١) . لا محل إذن للاستغراب ، لقد بدأ الإمام جابر هذه العنـاية واستن هـذه السنة ، وأحياها ، فتابعه شيوخ المذهب من بعـد ؛ تقـول هنـد بنـت المهلـب : " كـان

---

(١) التوبة – الآية ٧١ .

جابر بن زيد أشد الناس انقطاعا إلى وإلى أمى ؛ فما أعلم شيئا كان يقربنى إلى الله إلا أمرنى به ، ولا شيئا يباعدنى عن الله إلا نهانى عنه ، وما دعانى إلى "الإباضية" قط ولا أمرنى بها ، وإن كان ليأمرنى أن أضع الخمار - ووضعت يدها على الجبهة - " (١) ، ولست أجد ضرورة للتشكك فى هذه الواقعة فهى لا تعارض دور الرجل فى الحركة ، ولكنها تفيد شيئا هاما ؛ هو أن أنجح أساليب الدعوة هو ما تم بطريق غير مباشر - فرحم الله الجميع .

أما أبو عبيدة فقد واصل السعى فى هذا السبيل بمزيد نشاط وعناية ، فقد سئل عن " امرأة أعجمية لا تفقه العربية ، ولا تقرأ ولا تتعلم : هل تعطى من الزكاة؟ فأجاب بأنها تعطى على قدر فقرها ، إن كان جهلها بالتعليم للبلادة أو غير ذلك . أما إن كان جهلها سببه التضييع والإهمال فلا تعطى شيئا " (٢) ترى لو رأى أبو عبيدة نساء أمتنا اليوم ماذا كان يفعل ؟ أما هو فقد حاول الإصلاح فى عصره ؛ "سألته امرأة من أتباعه أن يسمح لها بالمقام فى مكة بعد أن أدت فريضة الحج ، فقال لها : الخروج أفضل " (٣) . وكان - رضى الله عنه - ربما عقد مجالس الدعوة العامة " فى بيوت النساء العجائز ، أو فى بيوت اللاتى انخرطن فى الدعوة من أصحاب النفوذ السياسى ؛ مثل سعيدة زوجة خال المهدى العباسى الذى كان وليا للعهد آنذاك ... " (٤) .

وهكذا كان للمرأة الإباضية " دورها الفاعل والمؤثر ... منذ وقت مبكر ، وقد استمر الإباضية حريصين على التمسك بهذه السنة فى مجتمعاتهم المتعددة ،

---

(١) أحمد درويش ٢٦٩ .

(٢) عبد المجيد بدوى ٢١٦ .

(٣) السابق ٧١ .

(٤) السابق ٦٦ .

وفى عصورهم المختلفة ، وقد أفادوا كثيرا من العنصر النسائى " (١) ، وربما كان من مظاهر ذلك ما يرويه الشيخ على معمر عن إباضية ليبيا ؛ أنه " اشتهر لهم عدد كبير من العلماء ... كما اشتهرت لهم مدارس عامرة ، بأنظمة تربوية رائعة ، زودت بأقسام داخلية لإفادة الطلبة الغرباء ، تحت إشراف مربيات قديرات ؛ فنبغ منهن عالمات جليلات سجلت لهن آراء وأقوال فى مسائل الشريعة ، وكان بعضهن يشتركن فى مناظرات مع كبار العلماء ، ويسجلن على بعضهم فوزا واضحا ، وكان لبعضهم مواقف حازمة فى قضايا خطيرة من شئون السياسة والمجتمع " (٢) وليس بمستبعد مع النهضة العمانية الحاضرة أن نرى مثيلات هؤلاء بإذن الله .

بقيت الآن كلمتان عن الجانب اللغوى والجانب الروحى من التراث الإباضى .

فأما الجانب اللغوى :

فإنى اعتقد جازما أن اللغة ، لكل قوم ولأفراد هذا القوم ، مقوم أساسى من مقومات الشخصية الجماعية والفردية .

ولحسب أن تاريخنا يقول : إنه بالرغم من أن العديد من المتكلمين فينا والدعاة قد أحسنوا القول وأجادوا الكلام ، فإن شيوخ الإباضية قد نالوا من ذلك سهما وافرا وحظا وافيا . صحيح أن المذهب يؤمن بالمساواة الإنسانية ويتوجه إلى المسلمين على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، وقد كان أشهر أئمة الظهور فى المغرب من بنى رستم ، وهم ينزعون إلى عرق فارسى ... وكان القوم يؤمنون بوجوب الطاعة ولو تأمر عليهم عبد حبشى . ولكن التجارب التى مارستها الحركة

---

(١) السابق ٧٢ .

(٢) على يحيى معمر : الإباضية – دراسة مركزة ٣٥ .

الإباضية، والمجتمعات التى سادتها ، كانت فى الأغلب عربية خالصة ، وعلى رأسها عمان ، التى منها خرج البيان العربى فى أعرق ألحانه الشعرية ، فكان طبيعيا وقد خالطت بشاشة الإيمان فيها القلوب ، وحملت النفوس أمانة الدعوة ، أن يصدر عنها وعمن يشاركونها موقفها ، أدب رصين حى ، يدفع عن قضية ويذود عن رأى ، وهذا ما نجده فى خطب أبى حمزة وشعر عمران كما مر بنا ، ونجده كذلك على لسان جابر وأبى عبيدة والربيع بن حبيب وإن غلب عليه الفقه أو الرواية أو أسلوب النصيحة والدعوة ، ولا غرو فقد نشأ القوم فى بيئة عربية خالصة ، وخاضوا أهوالا ، وكابدوا من البلاء أشكالا :

أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذى لك لن تطاعى
فصبرا فى مجال الموت صبرا ... فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز ... فيطوى عن أخى الخنع البراع
سبيل الموت غاية كل حى ... وداعيه لأهل الأرض داع

إن السليقة ناصعة وافرة ، والتجارب دافقة زاخرة ، والقضية شاهدة حاضرة ، فكيف لا يجود الشعر ويحلو الكلام ؟ فإذا ما ظهر الفقه واستحكم الجدل وذاعت الدعوة ؛ جاءت أسباب جديدة وصيغ مستحدثة وأساليب مخترعة ، لفن القول وتصريفه والسمو به .

وكان الخوارج قد سبقوا إلى ذلك اللون الأخير ، إذ كانوا "أول من فتح باب الفلسفة الدينية ، والفقه السياسى العقلى ، وبذلك برهنوا على نفاذ فى الفكر ، وقوة فى الاستدلال ، وبراعة فى إثارة المشكلات (١) " حتى لقد ضاق بذلك البعض

---

(١) عمار طالبى ١١٩ - ١٢٠ .

منهم :

كنا أنـــاســـا على دين فغيرنـــا طول الجدال وخلط الجد باللعب

ما كان أغنى رجالا ضل سعيهمو عن الجدال وأغناهم عن الخطب

أما أصحابنا الإباضية فلم يضيقوا به لأنه كان وسيلة دعوة وسـبيل هداية ، لا طريق تغير عن الحق أو إعراض عنه .

وفى النهضة العمانية حس نافذ ووعى صادق بجمال العربية وجلالة تراثها العريق ، فهى منه تمتاح وعليه تبنى وإليه تضيف ، ونحن ندعـو بـالمزيد ، ونتطلـع إلى الجديد . " والبيان ؛ بعد ، هو نعمة الله الكبرى التى أنعـم علـى عبـاده .. كذلـك علمنا ربنا سبحانه إذ قال " **علم القرآن خلـق الإنسـان علمـه البيـان** " فمـن استهان بالكلمة فقد استهان بأفضل آلاء الله على عباده ... " (١) .

وأما الجانب الروحى :

فإن الإنسان ليس مجرد عقل أو لسان ، أو جثة شـاخصة وكيـان ، بـل هـو مع ذلك ومن ورائه روح وقلب " **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب** ... " (٢) . وإذا جـــاء حديث الروح جـــاءت إلى الوعى قيمـــة الذكر ، وهذا حق خـــالص ؛ " **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ... " (٣) ، وقد ضرب النبى صلـى اللـه عليـه وسلم مثلا : فقال : " مثل الذى يذكر ربـــه والذى لا يذكـــره كمثـل الحى والميت " (رواه

---

(١) محمد بن سعيد : فضل العربية . ط دار البخارى بالقاهرة ص ٣٩ .

(٢) سورة ق – الآية ٣٧ .

(٣) الرعد : الآية ٣٧ .

البخارى) (١) ، وسأل أصحابه يوما " ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة ، وخير لكم من ان تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى ، قال : ذكر الله تعالى " – رواه الترمذى ، قال الحاكم أبو عبد الله : إسناده صحيح (٢) . فالقلب الحى جانب جوهرى من شخصية المؤمن ، وقد مربنا كيف كان شباب الإباضية يقضون ليلهم فى الذكر ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم ، ولئن رأى بعض العلماء أن زهدهم غلب عليه الخوف من النار ، فقد كان الشوق إلى الجنان لحنا آخر طارت به قلوبهم إلى الملأ الأعلى (٢) .

ولكن الحياة الروجية تزدهر حقا باستعلاء المؤمن على حطام الدنيا ، "روى الحصين عن جابر بن زيد أنه قال : سألت ربى ثلاثا فأعطانيهن : سألت زوجة مؤمنة وراحلة صالحة ، ورزقا حلالا كفافا يوما بيوم . وقال لأصحابه : ليس منكم رجل أغنى منى ، ليس عندى درهم ولا على دين " (٣) .

والحياة الروجية تزدهر بالخلق الحسن ، فجوهر الدين الخلق ، قال الحارثى فى " العقود الفضية " عن جابر : " كان غاية فى الأخلاق والجود والكرم ، خرجت زوجته آمنة إلى الحج ، ولما رجعت شكت إليه سوء معاملة الجمال ، فخرج إليه وأدخله داره ، واشترى لإبله علفا ، وعولج له طعام ، واشترى ثوبين كساه بهما ، ودفع له بما كان مع آمنة من قرب وإداوة وغير ذلك . فقالت : أخبرتك بسوء

---

(١) النووى : رياض الصالحين ، دار الكتب العلمية بيروت ، ص ٣٨٤ .

(٢) السابق : ٣٨٦ .

(٣) عمار الطالبى ١٠ ، ١٩٣ .

(٤) أحمد درويش ٢٢٧ .

العشرة ، ففعلت ما أرى ! فقال : أفنكافيه مثل فعله فنكون مثله ؟ بل نكافيه بالإساءة إحسانا وبالسوء خيرا " (١) .

ووصفه أبو نعيم الفضل بن دكين فى " الحلية " فقال : "المتخلى بعلمه عن الشبه والظلماء ، والمتسلى بذكره فى الوعورة والوعثاء ، جابر بن زيد أبو الشعثاء، كان للعلم عينا معينا ، وفى العبادة ركنا ركينا مكينا ، وكان إلى الحق آيبا ، ومن الخلق هاربا ... " (٢) أ هـ .

وفى الختام أود أن أنبه إلى أنه بالوسطية والإيجابية فى الجانب الاعتقادى ، وبالتفتح والعقلانية فى الجانب الفكرى ، وبالديمقراطية السياسية والاجتماعية فى المجال الاجتماعى ، وبالجمال البيانى والأصالة فى الجانب اللغوى والثقافى ، وبالزهد والأخلاق والذكر فى الجانب الروحى تزدهر الشخصية العمانية بل والمسلمة بوجه عام وتزداد رسوخا وقوة ، وتطالع عالم اليوم بجمال الحنيفية وسماحة الإسلام ، فى ثقة ونبالة وكرامة ، وتلك هى القيم التى قدمها لهم " أهل الاستقامة " .

يروى أن مازن بن غضوبة سأل النبى – صلى الله عليه وسلم : " ...يا رسول الله البحر ينضح بجانبنا ، فادع الله فى ميرتنا وخفنا وظلفنا ، قال الرسول الكريم : اللهم وسع عليهم فى ميرتهم وأكثر خيرهم من بحرهم . قال مازن : زدنى، قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – داعيا لأهل عمان : اللهم لا تسلط عليهم عدوا من غيرهم . ثم قال : قل يا مازن آمين ، فإن آمين يستجاب عندها الدعاء"(٣).

---

(١) السابق ٢٥٧ .

(٢) السابق ٢٠٥ .

(٣) السابق ١٤.